

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد وآله الطيبين الطاهرين سيما خليفة الله في الأرضين، واللعنة الدائمة على أعدائهم أجمعين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

ظاهرة النفاق في الأمم وطريقة الكذب إلى النفاق

يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم: (فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ)^(١)

انطلاقاً من هذه الآية القرآنية الشريفة وعلى ضوءها وبضم بعض الآيات الأخرى إليها، نستفيد مجموعة كبيرة من الحقائق المهمة، نذكر بعضها هذا اليوم:

١- النفاق سر دمار الأمم

الحقيقة الأولى هي أن النفاق هو سر دمار الأمم، وفشل الحضارات وانحيارها، وخراب الدين والإيمان، انه سر التقهقر والسير القهقري إلى الوراء، انه سر تحطم الأمم والشعوب والدول والعشائر والأحزاب والعوائل، وكل شخص... ان النفاق هو سر الشقاء.

٢- الكذب بوابة النفاق

إن البوابة الكبرى للنفاق هي الكذب، فالنفاق طريق الدمار، والكذب طريق النفاق، وسبب ووسيلة، وعلّة، موصلة للنفاق. وسوف نتحدث عن هاتين الحقيقتين في هذه المحاضرة بإيجاز وإن كان البحث يستدعي مزيداً من السعة في الوقت.

لِمَ كَانَ الْمُنَافِقِ اسْوَأَ مِنَ الْكَافِرِ؟

تقول الآية الشريفة: (فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ) فاذا ما ضمنا هذه الآية الى الآية الآخرة (إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ) علمنا فداحة أمر النفاق وخطورة عاقبته.

ولكن قد يُسأل: لِمَ لم يذكر ان الكفار هم في الدرك الاسفل من النار؟!!

وقد يكون الجواب هو: أن المنافق ظاهراً أهون حالاً من الكافر؛ لأن الكافر كافر بقلبه ثم إنه يجبهك بكفره بجوارحه، لأن ظاهره كباطنه كافر فهو يشهر السيف^(٢) علناً، بينما المنافق قلبه كافر الا انه يظهر الإسلام، فيفترض ان يكون أهون حالاً من الكافر لأنه يقارع الحق بقلبه فقط الا انه بجوارحه، ولو في الجملة، غير مقارع؟

فَلِمَ إِذْن: (إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ)؟ وَلِمَ (الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا)، ولعله ترقى عن (كفرا) فهو كافر بل منافق، أي: أسوأ.

السبب في ذلك، وبإيجاز: ان النفاق هو سر دمار الأمم وتحطم الحضارات وهلاك وفساد الحرث والنسل والزراعة والصناعة والعلم والأخلاق وكل شيء.

وقبل أن نوضح هذا الامر نشير بتعبير مبسط حتى لا تبقى القضية في ضمن شرح مفصل نقول - على حسب تعبير السيد الوالد (قدس سره) في التبيين في شرح هذه الآية (إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ) يقول: (لأنهم زادوا على الكفر الواقعي، غش المسلمين وحيانتهم)^(٣)

وهذا يعني ان موافقة ظاهريهم لنا هي مكن خطرٍ آخر فهناك خيانة وتدليس و غش، وإدخال من حيث لا يدري الناس لتحريف

(١) التوبة: آية ٧٧.

(٢) المادي أو سيف العدا.

(٣) تبيين القرآن ص ١١٢.

نتائج ظاهرة النفاق في الأسواق والجامعات والدول!

ولكي نستجلي حقيقة ذلك أكثر، لا بد من ان تقوم بجولة استعراضية:

فلو اننا ذهبنا إلى الوزارات، او الشركات، أو الأسواق، أو الجامعات، والمدارس وغيرها، فسوف نجد ان سر الخراب في كل ذلك هو النفاق.

فلو ذهبنا إلى الوزارة مثلاً، فستجد ان البعض كالمدير او الموظف لا يعمل بانتظام وبجودة وإتقان، إلا عندما تكون هيئة النزاهة أو الرقابة أو الرقيب أو المفتش موجوداً، وإلا فيسرق من الوقت أو المال أو الامتيازات أو غيرها، وكذلك الحال في الشركة أو هذا البقال أو ذاك التاجر أو هذا العالم أو ذاك الاستاذ الجامعي فانه يتقن عمله لو وجد الرقيب فقط، اما إذا لم يوجد رقيب ولا حسيب فإنه يخون في الأمانة.

والأستاذ مثلاً قد يحضّر الدرس جيداً، لكنه مسؤول شرعاً، اما لانه يأخذ راتباً، او لأن عنده تعهداً اخلاقياً — وهذا الكلام عن الخطيب أيضاً وغيره — بمعنى انه حتى إذا كان الانسان لا يأخذ مالا مقابل عمله، الا انه يوجد هناك تعهد أخلاقي بين الطرفين، بأن يتقن الأستاذ عمله، وأن يتقن التلميذ استماعه وتحضيره للدرس أو المحاضرة أو ما أشبه.

المهم عندما تذهب إلى الوزارة أو الشركة، تجد ان البعض ينافق ويدلس لأنه إن وجد رقيباً فإنه يقوم بعمله ويسير المراجعين بشكل جيد، وان لم يجد رقابة فانه يهمل ويتماهل ويسوّف ويقول للمراجع : اذهب وتعال غداً أو بعد غد!!

وفي ذلك ونظائره خراب للأمة، وهدر للطاقات والأموال، والحالة في ازدياد، وهي كماء يصب في أساس الدار فإنه يهدمها بعد فترة من الزمن.

وكذلك التاجر، فقد يبيع بضاعة غير مغشوشة مادامت توجد رقابة، لكن إن رأى فرصة، فانه يدلس ويغش ما استطاع الى ذلك سبيلاً، وذلك كله من النفاق، وهو أن يظهر غير ما يخفي، فيخفي الخيانة للمسلمين، يخفي الخيانة لدولته أو لشعبه أو لعشيرته أو لصديقه أو لزوجته أو لزوجها، الا انه يظهر العكس أي يظهر الحب والإخلاص والمودة.

فإذا ما صار النفاق حالة في الأمة مستحكمة، فان كل شيء سوف يفسد ويخرب وينهار؛ لأن الجوهر تُلف وفسد وما ذلك الا لأن المنافق لا يعترف برقابة الله سبحانه وتعالى، فيكذب ويدلس ويحتكر ويفسد ويسرق إلى ما شاء الشيطان له أن يسرق.

وبالتالي فان هذه الحقيقة الأولى واضحة جداً : وهي ان النفاق سر خراب ودمار البلاد والعباد.

وذلك عكس ما إذا كان الكل متقناً في عمله وكان ظاهره كباطنه، كالموظف أو العامل الذي دوامه (٨) ساعات والتزم بما أكملها ولم يضيّع بعض الوقت أو أكثره في الاتصال او بالانترنت أو بمحديث مع صديقه مضيّعاً بذلك حقوق الشركة أو حقوق التلاميذ أو حقوق المدرسة والمعمل والمصنع والمزرعة وغير ذلك، وهنا لتتصور حال الملايين من العمال والموظفين والمسؤولين ونظائريهم لو كانوا كذلك؟ ما الذي كان سيحدث في البلد؟ هذا هو الامر الاول والحديث حوله طويل لكن نكتفي من ذلك بهذا التمهيد

الكذب بوابة النفاق

ثم ان المفتاح والبوابة للنفاق هو الكذب، وسوف يتضح إن شاء الله أنه حتى الكذب المزاحي وغيره فان فيه إشكالاً، وإن أقام قرينة على المزاح، وسيظهر لنا وجه جديد خطر في البال في تفسير بعض الروايات التي أشكلت على عدد من الأعلام، ففسروها بخلاف ظاهرها وخصصوها:

الروايات: الكذب مفتاح المفساد

فلنتدبر الآن في بعض الروايات الشريفة:

منها: يقول الإمام الباقر صلوات الله وسلامه عليه كما في الكافي الشريف: (إن اللّ عز وجل جعل للشّر أفعالاً، وجعل مفاتيح تلك الأفعال الشراب، والكذب شر من الشراب)

مع اننا نعلم ان شرب الخمر عقوبته شديدة وهي ان يجلد الشارب ثمانين جلدة، لكن الكذب ليس كذلك، فكيف نفسر قوله (عليه السلام) (الكذب شر من الشراب)؟

الجواب : ان الكذب شر من الشرب كما قال (صلوات الله وتعالى عليه) ، الا انه ليس في البعد القانوني الخاص، بل من حيث بُعد هُدْمِهِ للامة والمجتمع باجمعه.

ومنها : يقول الإمام عليه الصلاة وأزكى السلام: "الكذب خراب الإيمان".

ومنها : يقول أمير المؤمنين صلوات الله وسلامه عليه: "لا سوءة أسوأ من الكذب".

سبحان الله، كيف ذلك؟ وهل يعني انه اسوأ حتى من هتك الاعراض وشرب الخمر وما أشبه ذلك؟

ومنها: يقول الإمام العسكري عليه السلام: "جعلت الخبائث في بيت وجعل مفتاحه الكذب".

"جعلت الخبائث كلها في بيت" والمحرمات كلها خبائث، وقد جعل مفتاحها الكذب. لم؟ وكيف؟

والروايات متعددة ومستفيضة في هذا المعنى، فلا نحتاج إلى بحث في سندها ولكن كيف ذلك؟

الجواب : ذكرنا : ان البعض، لأنه صعب عليه هذا التفسير أو لم يخطر بباله هذا التفسير الذي ذكرناه الآن إشارةً وسنفضله بعد

قليل وقد أشرنا إليه في البحث الاصولي " الاجتهاد والتقليد"، لذلك التجئ البعض إلى توجيهات أخرى، بمعنى انه رفع اليد عن الظاهر، الا

اننا نحافظ على الظاهر بما هو هو، فنقول : ان الكذب هو مفتاح النفاق وبوابته والمنافق في الدرك الأسفل من النار كما اوضحنا ، فالجهة

المقدمية هي السبب في ذلك، لكن كيف؟

عدم تطابق العوالم هو منشأ الفساد

نقول: وتدبروا في ذلك، لأنه بحث جديد ودقيق : الفلسفة الكلية هي أن منشأ الفساد هو لا تطابق العوالم، فان العوالم اذا لم

تتطابق فيما بينها^(١) فإن الفساد بدرجاته المختلفة ينجم عن ذلك ويتولد.

وقد يكون منشأ المبعوضية هو عدم تطابق العوالم، ولنمثل بمثال تكويني وآخر شرعي وآخر من نوع آخر.

أ- الرياء

ما هي مشكلة الرياء؟ لم الرياء هو الشرك الخفي؟ ولم هو مبطل للعمل؟ فالمرائي اذا صلى وأجهد نفسه في الصلاة فإن صلاته لا

تسوى عند الله نقيرا ولا فتिला وقطميرا، لم ذلك؟

ان المشكلة في الرياء هي الظاهر لم يطابق الباطن، أي ان عالم الظاهر أي عالم الجوارح لم يطابق عالم القلب، هذه هي مشكلة الرياء

لا أكثر.

ان منشأ الفساد والمبعوضية هو عدم تطابق العالمين، إذ كان ينبغي أن يتطابق هذا العالم مع ذلك العالم، بأن ينشأ منه، لكن هذا

العمل الريائي لم ينشأ من ذاك العالم فلم يتطابق معه، فالعمل باطل إذن.

ب- الدعاوى الفارغة

لنتصور ذلك الذي يدعي أنه دكتور، استاذ جامعة أو بروفيسور، مجتهد أعظم أو كذا وكذا وليس به، ماهي المشكلة في كلامه؟

ولنفرض أنه لا يترتب عليه أي فساد وإفساد خارجي فانه تارة يدعي أنه طيب ولكن من دون ان يُطَبَّب الناس ومن دون ان يوقعهم في

(١) المقصود عدم مطابقة العالم الأدنى لما هو الحسن من العالم الأعلى، لا لمطلق ما في العالم الأعلى. فتدبر.

الضرر، بل مجرد ان يدعي في المجلس أنه طيب، فما هي المشكلة فيه بحيث ان الناس إذا عرفوا انه كاذب فانهم يحتقرونه وينظرون اليه بعين الصَّغار؟ لماذا يعاقبوه أو يطردوه؟ فانه إذا ادعى ان له شهادة وانتمى للجامعة فإنه يطرد بعد ذلك، رغم أنه قد يكون عالماً أكثر علماً من ذي الشهادة، لكنه يطرد لو اكتشف في الجامعة أو في الوزارة أو غير ذلك انه قد كذب في دعواه، فما المشكلة؟
المشكلة أن هذا العالم لم يتطابق مع ذلك العالم، عالم الوجود اللفظي لم يتطابق مع عالم الوجود العيني، وانه كان ظاهره على خلاف باطنه.

تعريف النفاق:

ان النفاق يعني: إخفاء الشيء وإغماضه حسب تعبير "معجم مقاييس اللغة" وهو أفضل تعريف وجدته في ذلك، ونضيف له: إخفاء الشيء "القيح"، وكان لابد أن يقيّد به وذلك لان إخفاء الشيء الحسن لا يعتبر نفاقاً، بل هو تواضع، فلو أن أحداً كانت له من المقامات عند الله كذا وكذا فإخفاها، فهو متواضع وناكر لذاته وليس هذا نفاقاً، فالنفاق خاص بإغماض وإخفاء الشيء القبيح. وللنفاق تفسير آخر لعلنا في الاسبوع القادم نتطرق له.

والنتيجة: ان مشكلة النفاق هي عدم تطابق العوالم، والكذب هو البوابة لذلك كما انه في الواقع هو إحدى مفردات ومصاديق النفاق، فان الكاذب هو بلا شك منافق^(١)

طبيعة الإنسان لا تتعدد

ولأن طبيعة الإنسان لا تتعدد كما ثبت في علم النفس وفي علم الاجتماع فان الإنسان إذا كذب فهذه الكذبة تكون بنحو المقتضي، وبتعبير آخر: هي علة معدة لكذبة ثانية، وبذلك يكون قد بدأ مسيرة النفاق، ودخل في نفق النفاق، إذ انه يخفي بكذبه الواقع، فمع انه ليس بمرجع تقليد او مجتهد او مدرس يقول أنا كذلك ومع انه ليس كفوءاً للإدارة يقول أنه كذلك ويضع نفسه موضع المدراء.

مسيرة النفاق تبدأ بكذبة:

إذن: الكذب في الواقع هو مفتاح للنفاق لأنه الانسان يبدأ مسيرة النفاق من كذبة واحدة بسيطة بيضاء، وإن لم يترتب عليها ظاهراً اي فساد، ولذا نحن لنا نقاش موضوعي مع بعض الأعلام في ذلك البحث^(٢) ونقول انه لا يوجد لدينا كذب يخلو من الفساد، حتى تلك الكذبة البريئة فهي الواقع تتضمن وتستبطن او قل: تستلزم فساداً ولو بالواسطة.

ولذلك فإن الكذب مردوع عنه شرعاً إلى ابعد الحدود، ولذا نرى هذه الروايات ونرى ايتنا الشريفة صريحة أو كالصريحة في المقدمة الثانية التي ذكرناها وشارت لها الروايات: ان الكذب هو بوابة النفاق.

قال تعالى: (فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ) فان الباء هنا... بما (...).
بإسببية، أي ان هذا الكذب سبب النفاق، فان الكذب هو المقدمة الطبيعية للنفاق.
بل حتى ذلك الشق الآخر (بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ) فقد يقال انه وجه من وجوه الكذب^(٣) على تفصيل في محله، فالكذب هو سبب للنفاق.

الكذب على درجات، وبعضه مقدمة بعيدة

نعم، الكذب على درجات، والكذب على أنواع، والعلل المعدة من أنواع الكذب ومصاديقه كثيرة، فأحياناً كذبة واحدة تليها كذبة (٥٠٠) كذبة طويلة إلى ان توصله للنفاق الذي يجره إلى الدرك الأسفل من النار، ونحن لا نقول ان كل كذب يجزئ الإنسان للدرك

(١) لأنه أظهر خلاف الواقع.

(٢) بحث المكاسب المحرمة.

(٣) فتأمل.

الأسفل، بل نقول هي علة معدة، فالكذبة الأولى ثم الثانية ثم الثالثة وهكذا.. فكل منها سيئة تأخذ بعنق سيئة ثانية فتالثة فرباعة فخامسة فيصل إلى ما لا تحمد عقباه.

وما نريد ان نقوله : ان علينا ان نحذر وان نحذر الناس من النفاق ومن بوابته وهي الكذب، حتى تطهر البلاد من الالتواء والكذب والتدليس، وعندها سوف نرى ان الامة تزدهر وتتقدم الى الامام والى الكمال يوماً بعد يوم..

وإذا التزم الكل بالشفافية : العامل، او رب العمل، والمدرس والتلميذ والطفل و.. إذا التزموا جميعاً، بأن لا يكذبوا، فإن الأمة ستنهض أي نهوض، ولذا يظهر لنا مرة ثانية السر في كلام الإمام عليه السلام (إن اللّ عز وجل جعل للشّر أقفالاً، وجعل مفاتيح تلك الأقفال الشراب والكذب شر من الشراب)

لأن الشراب بذاته لا يجر إلى النفاق، اما الكذب فانه يجر للنفاق، والكذب هو خراب الإيمان فيستدعي النفاق وهو المضاد للإيمان. (لا سوءة أسوأ من الكذب) لأنه يجر في عِلِّه البعيدة إلى النفاق الذي يجر إلى الدرك الأسفل من النار، وأيضاً (جعلت الخبائث في بيت وجعل مفاتحه الكذب).

نعم.. هناك وجهة نظر اخرى تقول : بأن هذه الروايات محمولة على الاخص، وهي : ان الكذب في خصوص أصول الدين، أي : الكذب على الله سبحانه وتعالى والأئمة الأطهار، هي التي تستدعي النفاق وتوصل له.
نقول : نعم، ذلك هو المصداق الاجلى إلا أن الموصل للنفاق لا يقتصر على ذلك.
أعاذنا الله وإياكم من الكذب والنفاق ومن شرور النفس والشيطان انه سميع الدعاء وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين ،
وصلى الله على محمد وآله الطاهرين